

حقيقة آل البيت في المنظور القرآني

مؤلف:

حارث عبد الحميد الشوكاني

هذا الكتاب تم تنزيله من موقع العقيدة
www.aqeedeh.com

book@aqeedeh.com

العنوان
البريدي:

بعض المواقع الإسلامية النافعة باللغة الفارسية

www.aqeedeh.com

www.nourtv.net

www.islamtxt.com

www.sadaislam.com

www.ahlesonnat.com

www.islamhouse.com

www.isl.org.uk

www.bidary.net

www.islamtape.com

www.tabesh.net

www.blestfamily.com

www.farsi.sunnionline.us

www.islamworldnews.com

www.sunni-news.net

www.islamage.com

www.mohtadeen.com

www.islamwebpedia.com

www.ijtehadat.com

www.islampp.com

www.islam411.com

www.videofarda.com

www.videofarsi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ديننا الإسلامي العظيم دينٌ عالميُّ الرّسالة، إنسانيُّ الوجهة والمنطلق، أنزله الله رحمةً للعالمين؛ لإخراج النّاس من ظلمات العبوديّة والاستبداد والظلم، إلى نور الحرّيّة والعدالة والمساواة.

ولكن دخل على ديننا الحنيف من تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين، وتحريف الغالين ما عكّر صفو مبادئه وقيمه السّامية، لا سيّما في عصور الانحطاط والتخلف، ولذلك يتوجّب على علماء الإسلام ومفكّري هذه الأُمَّة كما تصدّوا للتّيّارات الفكرية الماديّة والإلحاديّة التي حاولت النّيل من الإسلام من خارجه- أن يتصدّوا أيضًا للأفكار والمفاهيم المغلوطة التي ضربت مقاصد الدّين، وشوّهت تعاليم الإسلام من داخله. ومن أخطر المفاهيم التي شوّهت عالميّة الإسلام ومقاصده الداعية إلى الحرّيّة والمساواة والعدالة والشّورى والوحدة- تلك المفاهيم والأطروحات التي فسّرت الإسلام تفسيرًا عنصريًّا جاهليًّا عبر الادّعاء بالحقّ الإلهيِّ للولاية العامّة في آل البيت. فهذا هو القاسم المشترك بين الفرق والمذاهب الشّيعيّة في الجملة على اختلافها في التّفصيل، وهو رفض مبدأ الشّورى كأساس تقوم عليه الدّولة الإسلاميّة والولاية العامّة، مع أنه أصل قرآني قطعيّ السّنند والدّلالة بصريح القرآن: ﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾

[الشورى: ٣٨].

وادّعاء كافّة هذه المذاهب والفرق الشّيعيّة بالحقّ الإلهيِّ للولاية العامّة في الإمام عليّ بن أبي طالب س وكرّم الله وجهه وأولاده من بعده- بحجّة أنّ الإمام عليّ وأولاده هم أهل بيت رسول الله ص وبالتالي فالإمامة والولاية العامّة حقّ محتكر لآل بيت رسول الله وأهله، محروم منها كافّة المؤمنين الذين لا ينتسبون -بزعمهم- لآل البيت أو أهل البيت، زاعمين أنّ العلم والتّقوى غير كافية لتولّي الولاية العامّة والخلافة والسّلطة السياسيّة الإسلاميّة، بل لا بدّ من الأفضليّة العنصريّة.

هذا التّأويل العنصريّ الاستعلائيّ الاستكباريِّ للحقوق السياسيّة والاجتماعيّة في الإسلام هو ما تركز عليه المذاهب الشّيعيّة المختلفة، ابتداءً من المذهب الهاديّ المنتحل للإمام زيد، ومرورًا بالمذهب (الاتناشري) المنتحل للإمام جعفر الصادق، وانتهاءً بالمذهب الباطنيّ الإسماعيليّ المنتحل للإمام إسماعيل.

ولمّا كانت نظريّة الإمامة والولاية القائمة على الحقّ الإلهيِّ في مختلف المذاهب الشّيعيّة تركز على أساس أفضليّة آل بيت رسول الله وأهله من النّسب والطين لا آله من الإيمان والدّين رأيت مناقشة موضوع من هم آل البيت وأهل البيت في القرآن؛ لتقويض

هذه الخزعبلات الشيعية من أساسها، وصدق عالم اليمن وشاعرها الإمام نشوان بن سعيد الحميري القائل في بيان من هم آل البيت:-

من الأعاجم والسودان والعرب
 آل النبي هم أتباع ملته
 لو لم يكن آله إلا قرابته
 صلي المصلي على الطاعي أبي لهب

ولا يخفى في هذا المقام للمتعمق في دراسة المذاهب الشيعية بأن التشيع في الحقيقة هو التأويل المجوسي للإسلام؛ فمن المعروف أن مجوس الفرس بعد سقوط الدولة الفارسية سياسياً وعسكرياً رفعوا شعار (عجزنا عن مقاتلتهم على التنزيل فسناقتلهم على التأويل)، وقد أكد القرآن خطورة هذا التأويل بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ رِجٌّ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧]. ويتعزز هذا الفهم لهذه الآية بأن المقصود بهذا التأويل هم المجوس بصورة خاصة، بقول الرسول ص في الحديث الصحيح المتن لموافقة متن الحديث لمتن الآية: «سيكون أناس من أمتي يضربون القرآن بعضه ببعض ليبطلوه ويتبعون ما تشابه منه ويزعمون أن لهم في أمر ربهم سبيلاً ولكل دين مجوس وهم مجوس أمتي» أخرج ابن عساكر، ويقول الرسول ص: «لكل أمة مجوس ومجوس أمتي القدرية» أي المنكرين للقدر، وفي لفظ: «لكل أمة مجوس ومجوس أمتي الذين يقولون لا قدر إن مرضوا فلا تعودوهم وإن ماتوا فلا تشهدوهم». حسن - صحيح الجامع للألباني.

وأكبر دليل على أن النظرية السياسية الشيعية القائلة بالحق الإلهي والرافضة لمبدأ الشورى نابعة من رؤوس مجوس الكوفة وجنوب العراق الذي يدعى تاريخياً عراق العجم هو حديث رسول الله ص الصحيح، الذي أشار فيه إلى أن فتنة وقرن الشيطان وتسعة أعشار الشر ستأتي من العراق بقوله ص: «اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك في يمننا، فقآلها مراراً، فلما كان في الثالثة أو الرابعة، قالوا: يا رسول الله وفي عراقنا، قال: إن بها الزلازل، والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان» وزاد في آخره (وبها تسعة أعشار الشر). (السلسلة الصحيحة للألباني).

ويتعزز هذا الفهم بفهم الإمام علي س وأولاده الذين كانوا خير من جسّدوا معاني الإسلام؛ فالإمام علي س الذي تربى في كنف الوحي الإلهي، والرسول ص فهم الإسلام كما فهمه الصحابة وأهل السنة، بأن الولاية العامة والخلافة تقوم على أساس الشورى لا نظرية الحق الإلهي المجوسية، والدليل القطعي على ذلك ما ورد في كتب الشيعة نفسها في نهج البلاغة المعتمد عند كل فرق الشيعة حيث قال: «إنه بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك

الله رضا، فإن خرج منهم خارج بطعن أو بدعة ردّوه إلى ما خرج منه، فإن أبي قاتلوه على أتباعه غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى». [نهج البلاغة: ج ٣ ص ٧].

وقول الإمام علي هذا له عدّة دلالات هامة منها:

- قناعته بشرعية الخلفاء من قبله.

- تأكيد علي أنّ الشورى هي الوسيلة الشرعية التي تقوم عليها الولاية العامة في المنظور الإسلامي، وأنّ هذه الوسيلة (الشورى) هي الله رضا.

- استنكاره لأيّ خارج على الولاية الشورية بدعة أو نهج يخالف هذا النهج، بما فيها نظرية الإمامة والحقّ الإلهي المجوسية.

فهذا دليل قاطع على أنّ نظرية الحقّ الإلهي الرافضة لمبدأ الشورى القرآني لا علاقة لها بالإمام عليّ س وإنما هي فكرة مجوسية لا علاقة لها بالإسلام، كما أنّ القول المشهور للإمام علي: «اعرف الحقّ تعرف أهله». يتناقض مع المذاهب الشيعة كافة القائمة على أساس «اعرف أهل البيت تعرف الحقّ» وهذه المقولة للإمام عليّ وهو

الفقيه والعالم استقاهما من قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأعراف: ٣].

ونجد الإمام زيد بن عليّ س يجسد نفس المعاني الإسلامية حيث كان يؤمن بأنّ الولاية تتم بالشورى، ويقرّ كأبيه بشرعية ولاية الخلفاء الراشدين بدليل أنه عندما ذهب إلى العراق، والتقى مجوس الكوفة رفض البراءة من الشيخين أبي بكر وعمر ب عندما طلب منه مجوس الكوفة ذلك، وقال لهؤلاء المجوس: (اذهبوا فأنتم الرافضة)، فكان أول إمام سنّي يطلق على الشيعة هذا اللقب (الرافضة)، وهكذا بذل الإمام زيد بن عليّ س نفسه من أجل تزكية أبي بكر وعمر؛ لأنّ الجيش المجوسي المحيط به تخلى عنه عندما رفض البراءة من الشيخين، وتسبّب ذلك في استشهاد دافعاً عن الشيخين.

كما أنّ طلب مجوس الكوفة من الإمام زيد البراءة من الشيخين دليل آخر أنّ نظرية الحقّ الإلهي في الولاية العامة للإمام عليّ وأولاده قد نبعت من عند مجوس الكوفة لا من الإمام عليّ وأولاده ش جميعاً الذين كانوا خير من جسّدوا معاني الإسلام كما أوضحت.

كما أنّ إصرار الفرس المجوس على هذه النظرية السياسية التي تحصر الحقّ السياسي في الإمام عليّ وأولاده - وهم أهل مطامع سياسية كما نعلم - تدلّ على أنّهم انتحلوا هذا النسب العلويّ بعد مقتل الإمام عليّ، والإمام الحسين، والإمام زيد ليصبح شعار آل البيت وأهل البيت هو الغطاء الشرعيّ للمطامع السياسية الفارسية المجوسية، والمفترض أنّ الفرس المجوس يرفضون حصر الإمامة والولاية في العرب، فضلاً عن الإمام عليّ وأولاده لو لم يفكروا في انتحال هذا النسب.

ويتعزّز هذا الفهم بحديث الرسول ص الذي ذكر فيه انتحال المبطلين أي انتحال النسب النبويّ الكريم في قوله ص: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» [صححه الإمام أحمد - الجامع الكبير للسيوطي].

وقد أكد علماء الإسلام هذا الانتحال للنسب العلويّ، من ذلك نسب عبيد الله المهدي مؤسس الدولة العبيديّة في المغرب والفاطميّة في مصر حيث ذكروا أنّ عبيد الله المهدي مجوسيّ انتحل النسب العلويّ كذباً وزوراً.

وصدق شاعر اليمن أبو الأحرار الشهيد محمد محمود الزبيرى عندما قال:

حاشا لله أن يكونوا لطفه
بل وحاشا أن ينتموا ليزيد

لو يصحّ انتسابهم لعلّي
كرّم الله وجهه في الخلود

لاقتصرّت دماؤهم من حياءٍ
وأبت أن تجري لهم في وريد

وليس أدلّ على أنّ هؤلاء الرافضة المجوس أهل ضلال وانحراف عن جوهر الإسلام من تشكيكهم في أصول الوحي الإلهيّ قرآناً وسنة من خلال الطعن في القرآن، عبر الزعم بأنه قد بُدّل وحُرّف، وطعنهم في السنة النبويّة وتكفيرهم وطعنهم في الصحابة -رضوان الله عليهم- الذين زكاهم صريح القرآن بقوله تعالى: ﴿وَالسَّيْفُونَ

الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٠﴾ [التوبة:

١٠٠]. والطعن في نساء النبيّ ص و عرض رسول الله، وتأويلهم للعقيدة الإسلاميّة تأويلاً

إحاديّاً عبر إنكار ذات الله وصفاته تحت شعار التنزيه، وتأويلهم للشريعة الإسلاميّة تأويلاً طاغوتياً عبر نظرية الحقّ الإلهيّ المجافية لمبدأ الشورى الأصل القرآنيّ القطعيّ.

فمأذا بقي من الإسلام بعد هذه المطاعن المجوسية الرافضية في أهم مقاصده وأسس.

وفي هذا السياق سابين حقيقة آل البيت بأنهم الأتباع قيماً ودينياً، لا نسباً وطينياً، وسأحشد بإذنه تعالى الأدلة المتواترة القاطعة الدلالة من القرآن والسنة لهدم بيت العنكبوت.. البيت المجوسيّ الخبيث المنتحل للبيت النبويّ الطيب كذباً وزوراً، وصدق الله العظيم القائل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا

وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ [العنكبوت: ٤١]. والقائل: ﴿مَا

كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وصدق شيخ الإسلام الإمام محمد بن علي الشوكاني عندما قال:

أني لهدم بيوت الرّفص أحتشُدُ

لعمر أبيك دينُ الرافضين
وأخفوا من فضائله اليقيناً
وعادوا من حذاهم أجمعيناً
ألا لعن الإله الكاذبيناً

الذنبُ لي عند أهل الرّفص كلهم
والقاتل:

قبيحٌ لا يمانئه قبيحٌ
أباحوا في عليّ كلّ نكرٍ
وسبوا لا رُعوا أصحاب طه
وقالوا دينهم دينٌ قويمٌ

أولاً: المنهجية الصحيحة للفهم والاستدلال

قبل أن أشرع في المناقشة الموضوعية للأدلة الشرعية لموضوع من هم آل البيت وأهل البيت، لا بدّ ابتداءً من الاتفاق على المنهجية الصحيحة للفهم والاستدلال؛ لأنّ الأزمة المعرفية التي تعاني منها العقلية الإسلامية اليوم هي أزمة منهجية تولد عنها أزمة معرفية، تولد عنها أزمة تصوّرية، وهذه الصدوع التي تعرّضت لها العقلية الإسلامية هي نتاج الهجمة التأويلية والمعرفية المجوسية واليهودية.

تولّد عن هذه الهجمة الشرسية ما يمكن تسميته بالعقلية النصية الجزئية لا الكلية، ونقصد بهذه العقلية: العقلية البسيطة غير القادرة على الفهم التحليلي الاستنباطي التركيبي العقلية التي تستخدم ملكة الحفظ أكثر من ملكة الفهم، ولذلك نجدها تتعامل مع النصوص الشرعية بطريقة مجزأة كنصوص وليس كمواضيع، في حين أنّ المنهجية الصحيحة لفهم القرآن والسنة هي البحث فيهما كمواضيع وليس كنصوص مجزأة بجمع كلّ نصوص الموضوع الواحد في وحدة موضوعية واحدة، مع التمييز بين مراتب الأدلة موضوع الاستدلال إحصائياً وتشابهاً، يقيناً وظناً، قوّة وضعفاً، أصولاً وفروعاً، كليّات وجزئيات، سنناً ومنتناً، عامّاً وخاصّاً مجملاً ومفصّلاً.

وحتى نصل إلى هذه المعالم المنهجية لا بدّ من الاتفاق على هذه القواعد المنهجية للفهم والاستدلال على النحو التالي:-

١- لفهم نصوص الوحي فهماً لا يخلّ بوحدها الموضوعية لا بدّ من الربط بين مقاصد الشريعة وكلياتها وجزئياتها ربطاً يؤدي إلى تساوق وتوافق هذه المحاور وتولّد بعضها عن بعض لا فهماً يضرب بعضها ببعض ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا

فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

٢- وللوصول إلى هذا الفهم الذي يربط بين المقاصد والكليات والجزئيات ربطاً متوافقاً غير متخالف لا بدّ أن تكون المقاصد العامة للإسلام واضحة أمام العالم.

٣- بعد تحديد المقاصد العامة للإسلام يتمّ البحث في أصول وكليات المعاني القرآنية (المحكمات) قبل الفرعيّات والجزئيات (المتشابهة)، وحتى نصل إلى هذا الفهم لا بدّ من البحث في نصوص الوحي كموضوعات وليس كنصوص مجزأة، فأبحث - على سبيل المثال- موضوع الولاية العامة والخلافة أو موضوع آل البيت كموضوع كلي.

وفي هذا السياق يتم جمع كافة النصوص الواردة في القرآن والسنة المتعلقة بالموضوع ثم فهمها فهماً متوافقاً كوحدة موضوعية واحدة، يفسر بعضها بعضاً لا فهماً متضارباً متعارضاً بين نصوص الموضوع الواحد.

٤- بعد جمع أدلة الموضوع الواحد يجب التفريق بين أصول معاني الموضوع (المحكمات) وفروعه (المتشابهات)؛ لأن لكل علم وموضوع قواعد وأصول وجزئيات وفروع، ولا يمكن الوصول إلى الفهم المحكم لأدلة الموضوع الواحد إلا إذا تم تحديد أصول الموضوع أولاً، ثم تركيب فروع الموضوع على أصوله؛ لأن منشأ التشابه يأتي من الاستشهاد بالأدلة الفرعية قبل أصولها.

٥- بعد البحث الكلي عن موضوع معين في القرآن والفراغ من تحديد أصوله وفروعه أقوم بعرض هذا الموضوع الكلي على المقاصد العامة للتأكد من عدم فهم هذا الموضوع بما يعارض المقاصد العامة.

٦- لا بد من التفريق بين نصوص الوحي كتاباً وسنة من حيث حجيتها وبين فهم العلماء لها؛ فالداسة إنما هي ثابتة للوحي المعصوم قرآناً معصوماً وسنة معصومة بالقرآن، أما فهم العلماء فهي عرضة للخطأ في الفهم بحكم بشريتهم وعرضة للتأثر والتأثر بخصوصية الواقع الظرفي زماناً ومكاناً، وبالتالي فلا يمكن سحب قداسة الوحي على فهمهم، ولا تبرز حجيتها إلا بإسناد فهمهم بدليل من الكتاب والسنة لقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مَن دُونِهِ أُولَئِكَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾

[القصص: ٥٠].

٧- في إطار نصوص الوحي لا بد من التفريق بين ما هو نص قرآني ونص لحديث نبوي؛ فالقرآن مقدم في الاعتبار على السنة النبوية سنداً وامتناً؛ لأن القرآن قطعي يقيني والسنة النبوية الصحيحة الأحادية باستثناء المتواترة ظنية، كما قرّر ذلك علماء الحديث والفقهاء.

٨- ونصوص السنة الأحادية الصحيحة السند متفق على العمل بها ما لم تصادم وتخالف وتناقض نصوص القرآن ومقاصد الشريعة، وعند حدوث التعارض بين نصوص القرآن ونصوص السنة يتم العمل بالمبدأ الأصولي المعروف (مبدأ التعارض والترجيح) أي العمل بقاعدة الموازنة بين الأدلة والترجيح؛ أي نسعى للتوفيق بين نص الحديث ونص القرآن، ولو أدى الأمر -كما يقول علماء الأصول- إلى الأخذ بالمفهوم المرجوح وترك المفهوم الراجح للحديث النبوي ليوافق النص القرآني فإن استحالت عملية الترجيح تم ردّ الحديث المعارض للقرآن، كما قرّر ذلك علماء الأصول، على رأسهم الإمام الشاطبي في كتابه الموافقات وكيف أنّ أم المؤمنين عائشة لردت حديث رسول الله ص الصحيح السند الضعيف المتن (إن الميت ليُعذب ببياء أهله)

لتعارضه مع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وكما قرّر ذلك علماء الحديث على رأسهم الإمام البخاري؛ فقد أورد في صحيحة أنّ عائشة ردت هذا الحديث لتعارضه مع القرآن بالرواية التالية: «فَلَمَّا أُصِيبَ عُمَرُ دَخَلَ صُهِيبٌ يَبْكِي يَقُولُ: وَآخَاهُ، وَصَاحِبَاهُ، فَقَالَ عُمَرُ س: يَا صُهِيبُ أَتَبْكِي عَلَيَّ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ص إِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبَعْضِ بُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ؟! قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ب: فَلَمَّا مَاتَ عُمَرُ س ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَائِشَةَ ل فَقَالَتْ: رَحِمَ اللَّهُ عُمَرَ، وَاللَّهِ مَا حَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ ص إِنَّ اللَّهَ لَيُعَذِّبُ الْمُؤْمِنَ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ص قَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَيَزِيدُ الْكَافِرَ عَذَابًا بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ، وَقَالَتْ حَسْبُكُمْ الْقُرْآنُ ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ ب عِنْدَ ذَلِكَ: وَاللَّهِ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى» (٥)(٣٣).

وقد أكد الشيخ الألباني المحدث المعاصر الشهير في كتابة الآيات البيّنات في عدم سماع الأموات بأنّ صحّة السند لا تستوجب صحّة المتن، وأنّ هذه قاعدة مشهورة عند علماء الحديث بقوله: «المقرّر في علم مصطلح الحديث أنّ صحّة الحديث لا يستلزم صحّة المتن لعلّة فيه خفيّة أو شنوذ من أحد رواته».

وذكر ابن القيم في كتابه (المنار المنيف في الصّحيح من الضّعيف) أموراً كليّة يعرف بها كون الحديث موضوعاً منها مخالفة الحديث لصريح القرآن. وقد جاء ابن القيم بأمتلّة كثيرة منها:

* مقدار الدّنيا (٧٠٠٠) سنة، وهذا يخالف القرآن ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ [الأعراف: ١٨٧].

* لا يدخل الجنّة ولد الزنا، وهو يخالف: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤]. وقال ابن الجوزي: (إذا رأيت الحديث يباين المعقول، أو يخالف المنقول أو يناقض الأصول فاعلم أنه موضوع). (الموضوعات لابن الجوزي- تدريب الراوي للسيوطي ٢٧٤).

وأنا أوافق ابن الجوزي في مخالفة الحديث للمنقول؛ أي القرآن، ولا أوافقه في مخالفة المعقول بشكل مطلق؛ لأنّ مخالفة المعقول أمر نسبيّ من إنسان إلى آخر؛ فقد يتوهم المرء مخالفة الحديث للمعقول وهو غير مخالف، إلاّ ما ثبت قطعياً في مخالفة المعقول على ضوء القاعدة التي قرّرها ابن تيميّة: في أنّ صحيح العقل لا يتعارض مع صحيح النقل.

كما أنّه من المعلوم أنّ الإمام مالك س الفقيه والمحدث المعروف صاحب كتاب الموطأ كان يقدّم عمل أهل المدينة على خبر الأحاد، فضلاً عن تقديم المعنى القرآني على الحديث النبويّ الأحاديّ إذا تعارض معه، وإلى هذا المعنى أشار ابن تيميّة بقوله:

«وَلَا تُعَارِضُ السُّنَّةَ بِإِجْمَاعٍ وَأَكْثَرُ أَلْفَاظِ الْأَثَارِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَالطَّالِبُ قَدْ لَا يَجِدُ مَطْلُوبَهُ فِي السُّنَّةِ، مَعَ أَنَّهُ فِيهَا، وَكَذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ، فَيَجُوزُ لَهُ إِذَا لَمْ يَجِدْهُ فِي الْقُرْآنِ أَنْ يَطْلُبَهُ فِي السُّنَّةِ، وَإِذَا كَانَ فِي السُّنَّةِ لَمْ يَكُنْ مَا فِي السُّنَّةِ مُعَارِضًا لِمَا فِي الْقُرْآنِ، وَكَذَلِكَ الْإِجْمَاعُ الصَّحِيحُ لَا يُعَارِضُ كِتَابًا وَلَا سُنَّةً» مجموع الفتاوى. (٤)(٢٠٨).

الأصول المحكمة المتعلقة بمفهوم أهل البيت، وآل البيت في القرآن بعد بيان معالم منهج الاستدلال والفهم للوحي، وأهمية الصدور في التعامل مع نصوص الوحي عن رؤية كلية شمولية- تدخل جزئيات الشريعة ضمن كليّاتها، وتدرج كليّات الشريعة تحت مقاصدها؛ لينشكّل من هذا الترابط نسيج محكم يتحقّق من خلاله التوافق الموضوعي للنصوص، وبيان محاذير الاستدلال المجزأ للنصوص الذي قد يؤدي إلى تعارض النصوص بعضها مع بعض، وإلى فهم بعض النصوص الجزئية فهمًا س طحيًا مباشرًا يطوّح بمقاصد الدين وغاياته ومراميه.

لنحاول انطلاقًا من هذه المنهجية فهم النصوص المتعلقة بموضوع آل البيت في القرآن والسنة بما يؤدي إلى إبراز هذا الموضوع في وحدة موضوعية متكاملة عبر طرح المحكم في هذا الموضوع وأمّهات المعاني ثم مناقشة الأدلة الفرعية في ضوء الأصول المحكمة، وإذا حصل أيّ تعارض بين الأدلة الفرعية والأصول المحكمة أعملنا القاعدة الأصولية (قاعدة التعارض والترجيح) لإيجاد التوافق بين نصوص السنة ونصوص القرآن المحكمة، وما لم فالاعتبار يكون للنصوص القرآنية المحكمة على النحو التالي:-

(١) نسب الدّم والطّين ونسب الإيمان والدين:

من المعلوم أنّ كلمة بيت وأخ وأب وأم وآل وأهل وعتره تُطلق في الاستخدام اللغوي والعرفي، ويُقصد بها نسب الدّم والطّين، لكن المتدبّر في القرآن والسنة سيجد أنّ القرآن قد استخدم هذه المصطلحات (بيت - أخ - أب - أم - آل - أهل) استخدامًا شرعيًا ترتّب على هذا الاستخدام القرآني نسب وأصرة دينية لا نسب وأصرة طينية بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. فهذه الآية صريحة الدلالة في

اعتبار المؤمنين إخوة دينًا، مع أنّ المألوف أنّ هذا التعبير (أخ) لا تُطلق إلا على الأخوة من القرابة والدم لا من الإيمان والقيم، ولم يكتفِ القرآن بالتأكيد على أنّ المؤمنين إخوة، وإنما أطلق على نساء النبي ص أمّهات المؤمنين بصريح قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجَهُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]. وبهذا يمكننا القول بأننا أمام معادلة كالمعادلة

الرياضية فنقول: «ما دام المؤمنون إخوة وأزواج النبي ص أمّهاتهم؛ إذا فالنبي ص أبو المؤمنين أبوة دينية لا طينية»، ويتعرّز هذا الفهم بأنّ النبي ص أبو المؤمنين دينًا لا طينًا بقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

فصريح القرآن جعل النَّبِيِّ ص وليّ أمر المؤمنين؛ فكأنَّ المقصود بالتعبير هذا هو تقرير أبوة محمد ص للمؤمنين، ويتعزّز هذا الفهم بمنهجية تفسير القرآن بالقرآن بقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾.

ومن المعلوم أنّ الأب في إطار الأسرة يُسمّى وليّ الأمر وربّ البيت، فكلمة (أب - ووليّ - وربّ البيت) تُطلق في اللغة العربية بمعاني مترادفة، ويتعزّز هذا الفهم بقوله تعالى في سياق إبراهيم ÷ عندما ادّعى اليهود أنّهم آل بيته دمًا وطينًا، فجاء القرآن، وردّ على اليهود بأنّ أولى الناس بإبراهيم هم محمد ص والمؤمنين، وليس اليهود في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]. فقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ﴾ مطابقة لقوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾.

ولمّا كان القرآن قد أطلق على إبراهيم صفة الأبوة للمسلمين «أبوة الدين لا أبوة الطّين» في قوله تعالى: ﴿مَلَّةٌ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾، فهذه آية قرآنية تدلّ على أنّ المقصود بالمصطلح القرآني (أولى) في سياق إبراهيم و(أولى) في سياق محمد ص أبوة الدين لا أبوة الطّين.

وبهذا نخلص إلى معنى هامّ، وهو أنّ كلمة أهل وآل إذا كانت في المصطلح اللّغوي والعرفي تُطلق على نسب الطّين إلّا أنّ القرآن في المصطلح الشرعيّ قد نقل أصرة النسب من الطّين إلى الدين، فاعتبر المؤمنين إخوة، وزوجات النبيّ ص أمهاتهم والنبيّ ص أبوهم دينًا لا طينًا.

وبهذا يتّضح أنّ أهل البيت وآل البيت في المنظور القرآنيّ هم المنتسبون إلى الرّسول محمد ص دينًا (المؤمنون) لا المنتسبون للرّسول ص طينًا (بنو هاشم).

ويتعزّز هذا الفهم بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا

يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

فهذه الآيات البيّنات أكّدت أنّ معيار الحساب يوم القيامة هو العمل الصّالح لا الأنساب ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾، وقد يقول قائل: إنّ هذه الآية النّافية للأنساب هي في الآخرة، وليس في الدنيا فنقول لهم الآية في هذا الموضوع تتحدّث عن الحساب يوم القيامة وحساب يوم القيامة إنّما هو محصّلة لأعمال الناس في الدنيا إنّ خيرًا فخير وإن شرًا فشرّ بدليل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]. ويتأكّد هذا الفهم بقول الرّسول ص: «لا يأتيني النّاس بأعمالهم

وتأتوني بأنسابكم»، وقول الرسول: ص فيما يرويه عن ربه في الحديث القدسي: «يقول الله يوم القيامة أيها الناس إنني جعلت نسباً، وجعلتم نسباً، فجعلت أكرمكم عند الله أتقاكم، فأبيتم إلا أن تقولوا: فلان بن فلان وفلان أكرم من فلان، وإني اليوم أرفع نسبي، وأضع نسبكم. ألا إن أوليائي المتقون». (المعجم الصغير - الطبراني).

وحديث الرسول ص الصحيح عن عبد الله بن عمر قال: «كُنَّا قُوعِدًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ، فَذَكَرَ الْفِتْنَ فَأَكْثَرَ فِي ذِكْرِهَا حَتَّى ذَكَرَ فِتْنَةَ الْأَحْلَاسِ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا فِتْنَةُ الْأَحْلَاسِ؟ قَالَ: هِيَ هَرَبٌ وَحَرْبٌ، ثُمَّ فِتْنَةُ السَّرَّاءِ دَخْنُهَا مِنْ تَحْتِ قَدَمِي رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، يَزُعُمُ أَنَّهُ مِنِّي، وَلَيْسَ مِنِّي، وَإِنَّمَا أَوْلِيَايَ الْمُتَّقُونَ». [رواه أبو داود وأحمد وصححه الألباني].

(٢) قصة نوح والمعنى الشرعي لأهل نوح:-

ويتعزز الفهم السالف لمفهوم أهل البيت في المنظور القرآني إلى درجة القطع في قصة نوح - بقوله تعالى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ وَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ لَحَقُّكَ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ قال ينوح إنه وليس من أهليك إنه وعمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إنني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴿٤٦﴾ قال رب إنني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمي أكن من الخاسرين ﴿٤٧﴾ [هود: ٤٥-٤٧].

فنجد صريح القرآن في هذا السياق يؤكد بدلالة قطعية مفهوم أهل البيت في القرآن بأن أهل البيت هم المنتسبون للأنبياء ديناً وعملاً صالحاً وإيماناً، لا المنتسبون دمياً وعرفاً وسلالة؛ فمن المعلوم أن ابن نوح من أهله دمياً في الاستخدام المتعارف عليه عند الناس وفي اللغة، ولكن القرآن ينفي هذه الصفة عنه بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ ودليل النفي في هذا المقام أقوى من دليل الإثبات، وزيادة في التحذير القرآني جاء قوله تعالى: ﴿فَلَا أَسْأَبَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾.

وبهذا نفهم أن كل من أثبت معنى أهل البيت بنسب الطين ونفى نسب الدين قد قال في هذا الأمر بغير علم، ثم يشدد القرآن على نوح بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وكلمة الجاهلين في هذا السياق تتجاوز معنى الجهل إلى معنى الجاهلية؛ أي أهل الجاهلية، وأهل الجاهلية هم أهل العصبية الجاهلية الذين قال فيهم الرسول ص بأحاديث صحيحة: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ» (دعوا فإنها منتنة).

(٣) وحدة الأصل البشري:

الزاعمين بأحقيتهم بالولاية بدعوى أن لهم نسباً يرتبط بالنبي ص نردّ عليهم بدليل قطعي قرآني وهو التأكيد الإلهي في القرآن بأن البشرية تتحدّر من أصل واحد؛ فكلّ البشرية تعود بجذورها إلى أبينا آدم ÷ أي أنّ البشرية في المنظور القرآني ليسوا أمة واحدة وشعباً واحداً فحسب، بل هم أسرة واحدة وبيت واحد بيت آدم ÷ والأدلة القرآنية المؤكدة بأنّ البشرية تتحدّر من أصل واحد ونفس واحدة هي قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أُمَّتَوْا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَأْتُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿٦١﴾ [النساء: ١]. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٥٨﴾ [الأنعام: ٩٨]. وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿٦٠﴾ [الزمر: ٦]. فهذه الآيات البيّنات أكّدت بدلالة قطعية وحدة الأصل البشري؛ فكلّهم يرجعون لآدم ÷.

ولذلك نجد القرآن في خطابه للبشرية يستخدم هذا النداء (يَا بَنِي آدَمَ) تأكيداً لهذه المعاني من ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَئِ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ [يس: ٦٠]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠].

ومن هذا المنطلق نقول: إنّ الزاعمين بأحقيتهم في الولاية بدعوى النسب المرتبط بالرّسول محمد ص مردود عليهم بقاعدة وحدة الأصل البشري، وأنّ كلّ البشرية ينتسبون إلى أبينا آدم ÷ فإذا كان للانتساب بالرّسل ميزة؛ فهذه الميزة يشترك فيها كلّ البشر مسلمهم وكافرهم؛ فكلّ البشرية هم آل آدم، وأهل بيته ÷ وآدم هو نبيّ الله ورسوله، وبهذه الحقيقة القرآنية القاطعة تنقطع دعوى كلّ لسان يدّعي الأفضلية العنصرية بالتحدّر من سلالة نبيّ ورسوله، والرّغم بأنّها سلالة مقدّسة والآخرين سلالة مدنّسة، وأنّ هذه السلالة المقدّسة هي سادة البشر لهم السّلطة والعلم والثروة، وأنّ بقية البشر خلّفوا لهم عبيداً وخدماء.

ونجد السّنة النبوية مطابقة للقرآن في التّأكيد على وحدة الأصل البشري، وأنّ معيار التّفاضل ليس قائماً على الأنساب بل على التقوى في حديث الرّسول ص «يا أيّها النّاس: إنّ ربكم واحد، وإنّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيّ على عجمي، ولا لعجمي على

عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى». رواه الإمام البيهقي، من حديث جابر س.

وكذلك روى أحمد في المسند (٢/ ٣٦١ ح ٨٧٢١) عن أبي هريرة بلفظ: «إن الله لأ قد أذهب عنكم عصبية الجاهلية وفخرها بالآباء، مؤمن تقى وفاجر شقى، والناس بنو آدم وآدم من تراب، لينتهي أقوام فخرهم برجال أو ليكونن أهون عند الله من عدتهم من الجعلان التي تدفع بأنفها التتن»..

والحديث القدسي الذي أوردناه سابقاً: «قول الله يوم القيامة أيها الناس إني جعلت نسباً، وجعلتكم نسباً، فجعلت أكرمكم عند الله أتقاكم فأبيتم إلا أن تقولوا: فلان بن فلان، وفلان أكرم من فلان، وإني اليوم أرفع نسبي، وأضع نسبكم، ألا إن أوليائي المتقون». فكل هذه الأحاديث أكدت وحدة الأصل البشري وأفضلية التقوى، وقول الرسول ص: «وإني اليوم أرفع نسبي، وأضع نسبكم، ألا إن أوليائي المتقون» تأكيد لما أسلفته من أن هناك نسب دين ونسب طين.

الأصول المحكمة المتعلقة بمفهوم أهل البيت وآل البيت في القرآن

(٤) المعنى المحكم لآل البيت في القرآن بأنهم الأتباع:-

لو تدبرنا القرآن لوجدنا المعاني القرآنية تتواتر في تقرير وتأكيد نسب الدين وإلغاء نسب الطين، من ذلك مصطلح آل البيت فهو يرد في القرآن بمعنى الأتباع من المؤمنين وليس بالمعنى السلالي العنصري:-

- ففي سياق ادعاء اليهود بأنهم آل إبراهيم سلاله وعرقاً ناقش القرآن هذه الدعوى، ونفى أنهم آل إبراهيم، مع أنهم من سلالة فعلاً، وقرر أن أولى الناس بإبراهيم هم أتباعه من المؤمنين على رأسهم محمد ص بما يؤكد بدليل قرآني قطعي أن آلهم الأتباع في قوله تعالى: ﴿رَبِّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨]. فقوله تعالى: ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ دليل قطعي قرآني

بأن آل إبراهيم وأولى الناس به هم أتباعه من المؤمنين لا اليهود المنتسبون إليه دمًا وعرقاً، وصدق عالم اليمن الجليل نشوان بن سعيد الحميري عندما قال:

آل النبي هم أتباع ملته

من الأعاجم والسودان والعرب

لو لم يكن آله إلا قرابته

صلى المصلي على الطاغى أبي لهب

- ويتعزز هذا الفهم بأن الآل في القرآن تأتي بمعنى الأتباع بمنهجية تفسير القرآن بالقرآن بقوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطٍ بِالتُّذْرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ

حَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ [القمر: ٣٣-٣٤].

فالآل هنا وردت بمعنى أتباع لوط من المؤمنين؛ لأن النجاة في المعيار القرآني لا تكون إلا للمؤمنين الأتقياء، ولأننا إذا تتبعنا السياق الموضوعي لمن يستحقون النجاة سنجد الآيات تتوالى وتؤكد أن النجاة لا تكون إلا للمؤمنين الأتقياء لقوله تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣]. وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيٍ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦].

و إذا كانت الآيات في قصة نوح قد أثبتت أن الأهل هم أهل الإيمان والعمل الصالح، وفي قصة إبراهيم أن الآل هم أيضاً الأتباع من المؤمنين، فإن قصة لوط قد جمعت بين المعنيين الآل

والأهل بمعنى المؤمنين ونسب الذين لا نسب الطين في قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [فأنجينه وأهله وإلا أمرته وقدرتها من العبرين] [النمل: ٥٦-٥٧].

ففي هاتين الآيتين نجد دلالة قطعية بأن الآل هنا المقصود بها الأتباع من المؤمنين للوط، ثم نجد الآية التي تليها تستخدم مصطلح الأهل بمعنى الآل، وفي كلا المعنيين المقصود هم المؤمنون المتطهرون. ويتعزز هذا الفهم باستثناء زوجة لوط، مع أنها من أهله صهراً؛ لأن عملها غير صالح.

فالقرآن الذي أكد أن ابن نوح ليس من أهله ﴿قَالَ يَبْنُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]. أكد أن زوجة لوط ليست من أهله؛ لأن عملها غير صالح ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُوَ كَانَتْ مِنَ الْعَابِرِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣].

ويتعزز هذا الفهم بأن زوجة لوط عملت عملاً غير صالح بمنهجية تفسير القرآن بالقرآن بقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾ [التحریم: ١٠].

- ويتعزّز هذا الفهم بمنهجية تفسير القرآن بالقرآن، باستخدام القرآن لمصطلح الآل في سياق فرعون، فمن المعلوم أنّ فرعون لم ينجب، وزوجته كانت امرأة سالحة، ومع هذا استخدم القرآن مصطلح آل فرعون في سياق أتباعه من جنوده بأدلة قرآنية صريحة قطعياً الدلالة من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٤٩]. فصریح القرآن استخدم كلمة آل فرعون، مع أنّ فرعون ليس له أولاد وإنما جنود وأتباع.

والذي يؤكد أنّ المقصود بال فرعون أتباعه وجنوده بمنهجية تفسير القرآن بالقرآن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٠]. فهذه الآية أكدت أنّ آل فرعون أغرقوا في البحر، والدليل بأنّ الذين أغرقوا في البحر جنوده بمنهجية تفسير النصّ بالنصّ قوله تعالى: ﴿فَأَتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]. فهذه دلالة قطعياً بأنّ آل فرعون هم جنوده وأتباعه.

ويتعزّز هذا الفهم بحديث الرسول ص عن أنس بن مالك: سئل رسول الله ص: من آل محمد؟ قال: (كلّ تقى) وتلا رسول الله ص: «إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُنْفِقُونَ»؛ فهذا الحديث وإن ضعف سنده، إلاّ أنه صحيح المتن؛ لأنّه تعزّز بقوة النصّ القرآني، فإذا كان الحديث يتعزّز عند علماء الحديث بروايته من طرق أخرى، فيقولوا صحيح لغيره، أفلا يتعزّز متن الحديث بالنصّ القرآني، وكذلك حديث الرسول ص «سلمان منّا آل البيت»، مع أنّ سلمان س فارسيّ الأصل، إلاّ أنّه انتسب لبيت النبوة ديناً لا طيناً، وهنا تبرز عظمة الإسلام الذي جمع بين صهيب الروميّ، وسلمان الفارسيّ، وبلال الحبشيّ، وأبو بكر الصديق العربيّ على خيرية القيم والدين لا خيرية النسب والطين.

وقد رجح هذا الرأي بأنّ الآل هم الأتباع الإمام النوويّ في شرحه على صحيح مسلم حيث قال ما نصّه: «واختلف العلماء في آل النبيّ ص على أقوال، أظهرها وهو اختيار الأزهرى وغيره من المحقّقين أنّهم جميع الأمة».

(٥) ما المقصود بقولنا في التّشهاد «اللّهم صلّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»:

أقول: إنَّ المتدبر للقرآن سيجد أنَّ معنى الآل الوارد في سياق الصلاة على النبي الذي نردده في التشهد الأوسط عند كل صلاة هم المؤمنون، وليس المقصود بال محمد ص بني هاشم.

والدليل القرآني القاطع هو قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٦٨﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٦٩﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤١-٤٣]. فهذه الآية وجه الخطاب بدلالة صريحة قطعياً للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ولم يتوجه الخطاب القرآني يا بني هاشم، وفي سياق (يا أيها الذين آمنوا) جاء قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ﴾ إذا فالصلاة من الله والملائكة هي للمؤمنين وليست لبني هاشم، ويتعزز هذا الفهم بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ولم يرد في الآية، وكان الله ببني هاشم رحيمًا.

فهذه دلالة قطعياً قرآنية أنَّ قولنا «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم» أن المقصود بالآل هنا هم المؤمنون أي الأتباع من المؤمنين، وليس آل محمد نسباً وعرفاً وعصبية.

وعلى الرغم من أنَّ الآية السالفة كافية في بيان معنى الآل في التشهد وخطبة الدلالة، إلا أنني سأؤكد هذا المعنى من زاوية أخرى، وهي أننا لو افترضنا أنَّ المقصود بالآل السلالة والعرق فإنَّ معنى التشهد عندئذ سيصبح على النحو التالي «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد». آل محمد بنو هاشم برهم وفاجرهم، وقولنا:

«كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم» فإنَّ آل إبراهيم هنا هم اليهود، وبهذا التفسير العنصري لمعنى الآل سيكون معنى التشهد أنَّ المؤمنين قد خرجوا من هذا الدعاء، وأنهم يلهجون بالدعاء لبني هاشم برهم وفاجرهم، ولبني إسرائيل المغضوب عليهم، ومثل هذا الفهم يصادم ثوابت القرآن والسنة.

ويتعزز هذا الفهم بأنَّ المقصود بال إبراهيم بنو إسرائيل إذا فهمنا الآل بمعنى عرقي ما ورد في القرآن من رد في سياق اليهود الزاعمين أنهم آل إبراهيم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٨]. فقد نفت الآية ارتباط اليهود بإبراهيم مع أنهم من نسله، وأثبت أنَّ أولى

الناس به وآله هم أتباعه محمد ص والمؤمنين.
آل البيت والتأويل المجوسي للإسلام

الأصول المحكمة المتعلقة بمفهوم أهل البيت وآل البيت في القرآن (٦) مفهوم أهل البيت وآل البيت في السنة النبوية:

بعد إيرادي للأدلة القرآنية المتواترة القطعية الدلالة لا الظنية سأستشهد بأحاديث من السنة النبوية مؤكدة للمعاني القرآنية السالفة، مع العلم أنّ القرآن مقدّم في الاعتبار على السنة، فإذا وردت أدلة من السنة موافقة له تعززت هذه المفاهيم بالقرآن والسنة، ولا بدّ من الإشارة في هذا المقام إلى أنّنا عندما نورد دليلاً من السنة، ويكون هذا الدليل موافقاً لمعنى موجود في القرآن؛ فإنّ دليل السنة يتعزّز بقوة النصّ القرآني، فإذا كان الحديث حسن السند أو ضعيف السند، وجاء متنه مطابقاً لنصّ قرآني فإنّ الحديث يصبح صحيحاً لغيره؛ لأنّه إذا كان علماء الحديث يعزّزون صحّة الحديث إذا كان ضعيفاً أو حسناً إذا وردت رواية أخرى صحيحة مؤكدة لمعنى الحديث الضعيف، فيطلقون على الحديث الضعيف المعزّز برواية أخرى صحيح لغيره، فإنّه من باب الأولى أن يتعزّز متن الحديث الصحيح أو الحسن أو الضعيف بمتون النصوص القرآنية. وسأورد في هذا المقام أحاديث صحيحة السند موافقة لمتون النصوص القرآنية على النحو التالي:-

١- يقول الرسول ص في الحديث الصحيح «إنّ أهل بيتي هؤلاء يرون أنّهم أولى الناس بي، وإنّ أولى الناس بي المتّقون من كانوا وحيث كانوا، اللهمّ إنّي لا أحلّ لهم فساد ما أصلحت، وأيم الله، ليكفؤون أمّتي عن دينها كما يكفأ الإناء في البطحاء» إسناده صحيح ورجاله كلّهم ثقات -تحقيق الألباني-.

ولو تدبّرنا معنى هذا الحديث الصحيح السند الصحيح المتن لموافقته للنصوص القرآنية السالفة لوجدناه يؤكّد عدّة معاني هامة:

أ- أنّه وإن كان أهل البيت من النسب والطين، إلّا أنّ أولى الناس بالرسول ص هم المتّقون، وهذا تأكيد من السنة الصحيحة إلى أنّ أولى الناس بمحمد ص هم المتّقون، وأنّ أهل بيته وآله هم المتّقون.

ب- الحديث لم يكتفِ بتقرير مفهوم أهل البيت وآله في المتّقين من كانوا وحيث كانوا، بل وصف الزاعمين بأنّهم أولى الناس بمحمد ص، وبالتالي لهم حقّ احتكار الولاية والسلطة والثروة والعلم وصف الرسول ص المدّعين هذا الادّعاء بأنّهم سيفسدون ما أصلحه من تقرير قاعدة المساواة بين الناس، وأنّ أكرم الناس هم المتّقون وليسوا بني هاشم، وأنّ المتّقين هم الأولى بالحقوق السياسيّة والاجتماعيّة من الذين يفسّرون الدين تفسيراً عنصرياً، فوصفهم بأنّهم سيفسدون ما أصلحه دليل قويّ على إدانة الرسول ص لمثل هذا التّأويل العنصريّ للدين.

ج- ولم يكتفِ هذا الحديث النبويّ بوصف الزاعمين أنّهم أولى الناس بمحمد ص نسباً وطيناً بأنّهم سيفسدون ما أصلحه عبر تقرير الرسول ص لمساواة الناس في الحقوق السياسيّة والاجتماعيّة، بل وصفهم بأنّهم سيخرجون الناس عن حقيقة دينهم، كما يكفأ

الإناء في الصحراء، فماذا سيقول دعاة التأويل العنصريّ للدين بعد هذه المحكمات من القرآن والسنة، وهذا الحكم الصادر عن الرسول ص فيه إدانة خطيرة.

٢- حديث الرسول ص «فتنة السراء دخنها من تحت قدم رجل من أهل بيتي يزعم أنه مني وليس مني وإنما أوليائي المتقون» حديث صحيح صححه الألباني في سلسلته الصحيحة (صحيح الجامع) رقم (٤١٩٤).

فهذا الحديث الصحيح يؤكد بجلاء مفهوم أهل البيت بنفس المفهوم الوارد في القرآن؛ بأن أهل بيت رسول الله هم المتقون، ولم يكتف بذلك، بل أنكر مفهوم أهل البيت بالنسب والطين «يزعم أنه مني وليس مني».

ولم يكتفِ الحديث بذلك، بل وصف التأويل العنصريّ للإسلام بأنه فتنة بنفس الوصف القرآنيّ لأهل الزرع ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧].

(٧) معيار التكريم والرفعة والعزة في القرآن هو التقوى والعلم والإيمان وليس النسب:

لو تدبرنا هذه المعاني القرآنية الهامة (التكريم - الرفعة - العزة) لوجدناها في القرآن قائمة على أساس التقوى والعلم والإيمان، وهي معايير كسبية يمكن للناس أن يتسابقوا على تحصيلها.

ولم يجعل القرآن معايير التكريم والرفعة والعزة معايير قسرية ترتبط بالنسب أو اللون أو العرق أو القوم والوطن؛ فليس بيد الإنسان أن يحدد عرقه أو لونه أو قومه، ولذلك لم يجعل الله من عدالته هذه المعايير القسرية (العرق - اللون - الوطن - القوم) معياراً للتكريم والرفعة والعزة:

معيار التكريم في القرآن:

التكريم في القرآن تكريمان: تكريم فطريّ وتكريم شرعيّ.

فالتكريم الفطريّ جعله الله لكافة بني آدم بتكريمهم بالعقل والإرادة في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَبْرِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ

كثيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]. فهذه الآية بدلالة صريحة فيما يتعلق

بالتكريم الخلقّي أوضحت أنّ الله قد جعل الكرامة لبني البشر كافة، لكنّ التفسير العنصريّ الشيعي والتفسير العنصريّ اليهودي قد حصر التكريم الخلقّي في بني إسرائيل وبني هاشم.

أما التكريم الشرعي المطابق للفطرة فقد جعله الله معياراً كسبياً لا قسرياً وهو معيار التقوى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

كما صرح القرآن برفض التكريم القائم على الأساس العنصري من خلال إسناد الخلافة لآدم في الأرض، ونزعها عن الشيطان عندما استكبر، ورفض القرار الإلهي بتعيين آدم خليفة في الأرض؛ بدعوى أفضليته العنصرية كون آدم خلق من طين، والشيطان من نار في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢].

مفهوم الرفعة في القرآن:

بحسب التأويل العنصري الشيعي للإسلام يصبح مفهوم الرفعة في القرآن خاصاً ببني هاشم وآل البيت وقائماً على أساس النسب والهبوط والذلة لغيرهم. لكننا نجد معيار الرفعة في القرآن درجات والهبوط درجات مرتباً بمعايير كسبية يمكن أن يتسابق الناس عليها وهي الإيمان والعلم والعمل الصالح لقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: ١١]. وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبْورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠]. فنظام الخدمة المدنية في القرآن له درجات وله درجات، وهذه الدرجات والدرجات ليست قائمة على أساس عنصري، وإنما على أساس إيمان وعلم وتقوى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

معيار العزة في القرآن:

العزة والذلة في القرآن قائمة على أساس الإيمان والعمل الصالح، وليس على أساس عنصري لقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبْورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا

الَّذِينَ وَاللَّهِ الْعِزَّةُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ [المنافقون: ٨].
فصريح هذه الآيات جعل العزة للمؤمنين، وليس لبني هاشم، أو سلالة ونسب معين،
وجعل معيار هذه العزة والرفعة الطيب من الأقوال والأفعال، وليس الطيب نسباً.
الأصول المحكمة المتعلقة بمفهوم أهل البيت وآل البيت في القرآن

(٨) خيرية القرآن وعنصرية الشيطان:

إنّ المتدبر للقرآن سيدرك أنه لم يكتفِ بجعل أساس الخلافة في الأرض هو الإيمان
والعمل الصالح، بل النهي القرآني الصريح عن أيّ نظام سياسي أو ولاية عامة أو
خلافة تقوم على أساس عنصريّ سلاليّ استكباريّ استعلائيّ، بحيث يحتكر الخلافة
والولاية العامة على أساس الأفضلية العنصرية ويقسم المجتمع إلى طبقتين:

- طبقة السادة المستكبرين.

- طبقة العبيد المستضعفين.

هذه المعاني يمكن فهمها بجلاء من خلال قصة آدم واستخلافه في الأرض، وموقف
الشيطان من هذا الاستخلاف هذه القصة التي أخذت مساحة واسعة في القرآن لناخذ منها
الدروس والعبر في سياق الخلافة، والحقوق السياسيّة، والولاية العامة على النحو
التالي:

لو تأملنا في قصة إبليس وأدم ÷ لوجدنا أنّ غضب الله على الشيطان وطرده من
رحمته لم يكن بسبب كفره بالله، بل بسبب كبره واعتداده بأصله وعنصره ونسبه، وقد
عدّ الله الكبر المتولد عن النزعة العنصرية والافتخار بالنسب سبباً لكفر إبليس.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ

﴿٣٤﴾ [البقرة: ٣٤].

- ولو بحثنا عن سبب كبره لوجدناه كبراً يرتبط بدعوى أفضلية الأصل والعرق
والافتخار بالنسب والمحتد: ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا أَنْتَ سَجَدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ

خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٣٢﴾ قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا

فَأَخْرَجَ إِيَّاكَ مِنَ الصُّغْرَيْنِ ﴿٣٣﴾ [الأعراف: ١٢-١٣].

- وقد جاء تمرد الشيطان وكبره واستعلاؤه واعتداده بأصله وعنصره ونسبه في

سياق الرّفص للقرار الإلهي بتعيين آدم خليفة في الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي

جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾ [البقرة: ٣٠].

- ومفهوم (خليفة) بالمصطلح القرآني مفهوم سياسي، يُقصد به الزّعامة أو الرّئاسة

أو الإمامة؛ لأن الإمامة في القرآن مشتقة من الأمام أي الشخص الذي يتقدم الناس وهو

الرَّعِيمُ أَوْ الرَّئِيسِ، وَالْإِمَامَةُ فِي الْقُرْآنِ هِيَ إِمَامَةٌ هَدَى، وَإِمَامَةٌ ضَلَالٌ، نَقُولُ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْأَئِمَّةَ الَّذِينَ حَكَمُوا فِي الْيَمَنِ أَلْفَ عَامٍ قَدْ شَوَّهُوا هَذَا الْمَصْطَلِحَ، فَهُمْ أُنْمَةٌ ضَلَالٌ، وَلَكِنْ هَذَا لَا يَمْنَعُنَا مِنْ اسْتِخْدَامِ هَذَا الْمَصْطَلِحِ الْقُرْآنِيِّ ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] فِي سِيَاقِ إِمَامَةِ الْهَدَى.

وَمَا يُؤَكِّدُ أَنَّ مَصْطَلِحَ (خَلِيفَةَ) يُقْصَدُ بِهِ الْإِمَامَةَ السِّيَاسِيَّةَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦].
كَمَا أَنَّ مَصْطَلِحَ خَلِيفَةَ يُقْصَدُ بِهِ إِلَى جَوَارِ الزَّعَامَةِ وَالْإِمَامَةِ السِّيَاسِيَّةَ مَعْنَى إِضَافِيٍّ، وَهُوَ الْإِشَارَةُ إِلَى تَدَاوُلِ السَّلْطَةِ؛ لِأَنَّ الْخَلِيفَةَ يَأْتِي بَعْدَ مَخْلُوفٍ؛ فَسِيَاقُ الْقُرْآنِ الْمُتَعَلِّقُ بِالْخِلَافَةِ وَالِاسْتِخْلَافِ يَدُلُّ عَلَى هَذَا، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّكَ الْعَنِّي ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَتَشَأُكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأنعام: ١٣٣].

- ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ [هود: ٥٧].

- ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

فَالْآيَاتُ السَّابِقَةُ أَكَّدَتْ مَا ذَهَبَتْ إِلَيْهِ بِصَرِيحِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنِّي أُوْمِنُ أَنَّ مَنَهْجِيَّةَ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ بِالْقُرْآنِ هِيَ أَقْوَى مَنَاهِجِ التَّفْسِيرِ، وَهَذِهِ الْمَنَهْجِيَّةُ تَسَاعِدُنَا فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ مَوْضُوعِيًّا، وَتَسَاعِدُنَا أَيْضًا فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ حَتَّى لُغَوِيًّا. أَقُولُ هَذَا؛ لِأَنَّ هَذَا الْمَصْطَلِحَ (خَلِيفَةَ) مَصْطَلِحٌ مَهْمٌّ قُرْآنِيًّا، وَقَدْ أَخْطَأَ فِي فَهْمِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْمَفْكَرِينَ؛ فَاعْتَبَرُوا الْخِلَافَةَ فِي الْأَرْضِ، وَكَانَتْهَا مَصْطَلِحٌ لِتَنْظِيمِ عِلَاقَةِ الْإِنْسَانِ بِالْأَرْضِ أَيْ الطَّبِيعَةِ، وَالْحَقِيقَةُ أَنَّهُ مَصْطَلِحٌ سِيَاسِيٌّ لِتَنْظِيمِ الْعِلَاقَاتِ السِّيَاسِيَّةِ، وَالْخَطَأُ الْآخَرَ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِي الَّذِي وَقَعَ فِيهِ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ وَالْمَفْكَرِينَ هُوَ اعْتِبَارُ هَذِهِ الْخِلَافَةِ خِلَافَةً عَنِ اللَّهِ، فِي حِينِ أَنَّ سِيَاقَ الْآيَاتِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا خِلَافَةٌ بِاللَّهِ، فَلَوْ جَاءَ هَذَا الْمَصْطَلِحُ (خَلِيفَةَ) خَاصًّا بِأَدَمَ لَاحْتِمَلْنَا هَذَا الْفَهْمَ الْقَائِلَ إِنَّهَا خِلَافَةٌ عَنِ اللَّهِ، لَكِنَّ سِيَاقَ الْآيَاتِ كُلِّهَا الْمُتَعَلِّقَةَ بِهَذَا الْمَصْطَلِحِ (خَلِيفَةَ - خُلَفَاءَ - يَسْتَخْلِفُ) يُؤَكِّدُ أَنَّهُ اسْتِخْلَافٌ بِاللَّهِ، لَا اسْتِخْلَافٌ عَنِ اللَّهِ بِدَلِيلِ الْآيَاتِ التَّالِيَةِ:

- ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

- ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩].

- ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٧٤].

إذا فمصطلح خليفة تدلّ قرآنيًا على ثلاثة أبعاد لغويّة:-

١- أنها زعامة ورئاسة سياسيّة لتنظيم العلاقات السياسيّة.

٢- أنها تشير إلى تداول السلطنة ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾

[الأعراف: ٦٩]. لأنّ كلمة خليفة تدلّ على مخلوف وخالف.

٣- وأنها خلافة بالله لا عن الله، بدليل أنّ كلّ الآيات تشير إلى أنّ الله استخلف آدم وداود، واستخلف قومًا عن قوم، ووعد باستخلاف المؤمنين في كلّ أطوار الصّراع السياسيّ التاريخيّ بين المؤمنين والكافرين.

من خلال المعاني اللّغويّة لمصطلح خليفة للقرآن فإننا نفهم من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ

رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. أنّ خلافة آدم هنا هي خلافة

بدلاً عن الملائكة والجنّ بزعامة الشيطان؛ أيّ أنّ الشيطان كان هو الخليفة قبل آدم والقرائن التي تعزّز هذا الفهم هي:

أ- احتجاج الملائكة على قرار التّعيين الإلهيّ لآدم خليفةً بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ

يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ومما يؤكّد شعور الملائكة على رأسهم الشيطان أنّ هذا الأمر (جعل آدم خليفة) فيه دلالة على انتزاع الخلافة منهم، وارتباط هذا وتعلّقه بهم هو هذا الاحتجاج الملائكيّ، وهذا الحوار السياسيّ الرّائع بين الله والملائكة الذي سعى الملائكة من خلاله بقيادة إبليس الذي كان طاووس الملائكة إلى التّشكيك في كفاءة آدم وجدارته بهذا المنصب:

﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ

مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ب- ثم يأتي المشهد الثّاني لقصة أوّل صراع سياسيّ شهدته الخليفة بين الملائكة والجنّ، وبني آدم وقصة أوّل حوار سياسيّ يدور حول تداول السلطنة السياسيّة، مشهد أنّ الله سبحانه وتعالى لم يغضب من الملائكة والشيطان على هذا الحوار الساخن، وإنّما حاورهم، وعندما شكّوا في كفاءة آدم، وأظهروا أنّهم أجدر منه بقولهم: «وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ».

ردّ الله عليهم بما يثبت أنّه أكفأ منهم، ولم يكن ردّ الله ردّاً نظريّاً، وإنّما لكي يقتنعوا

قناعة كاملة أنّه أكفأ منهم أدخل الجميع في اختبار عمليّ: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ

عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَّادِمُ أَنبِئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ [البقرة: ٣١-٣٣].

والآيات السابقة أوضحت لنا عدة أمور:

١. أن معيار ومواصفات هذا المنصب الأساسي هو العلم والكفاءة.
 ٢. جرى الاختبار العملي بين آدم والملائكة متعلقاً بهذا المعيار (العلم).
 ٣. أثبت لهم عملياً أن آدم أكثر علماً منهم.
 ٤. لو حاولنا معرفة سرّ تفوق آدم العلمي لوجدناه في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ فالكلّ تعلم من الله تعالى، لكن ما تميّز به علم آدم يكمن في قوله تعالى: ﴿الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ فكلمة (كلها) إشارة إلى العلم الكلي الذي هو علم السنن، وهو العلم الذي يقود إلى الفهم الشامل، ويتولد عن هذا العلم الكلي خاصية التنبؤ واستباق الأحداث، ولا يصل إلى هذا الفهم إلا من امتلك خاصية التعلم الذاتي وملكة فهم قوية تحلّل وتستنبط، أما علم الملائكة فهو علم جزئي، وليس لهم خاصية العلم الذاتي، ولذلك لا يعلمون إلا بقدر التلقين الإلهي لهم مباشرة، وإن في هذه القصة دروس بليغة في علم السياسة وفي علم الإدارة أشرنا إليهما ولم نفضّلها.
- ج- ومن القرائن على أن خلافة آدم جاءت بدلاً عن رئيس الملائكة (إبليس) والملائكة أيضاً، هو أنه بعد إثبات كفاءة آدم العلمية على الملائكة تم إصدار التوجيهات الربانية إليهم بالتسليم لخلافته وإعلان طاعته من خلال الأمر الإلهي بالسجود، والسجود هنا سجد الطاعة والاعتراف ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ

فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ [البقرة: ٣٤].

- د- من الأدلة أيضاً على أن خلافة آدم كانت بدلاً عن الشيطان رئيس الملائكة هو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٣٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٣٧﴾ قَالَ أَذْهَبُ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿٣٨﴾ وَاسْتَفْزِرُوا مِنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْهُمْ بَصُوتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ

وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٥﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ
وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٦﴾ [الإسراء: ٦١-٦٥].

فقول الشيطان في الآية: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ دليل على استخلاف آدم بعد مخلوف هو الشيطان؛ إذ عدَّ الشيطان تعيين آدم تكريمًا لآدم على الشيطان؛ أي بديلاً عنه.

الأصول المحكمة المتعلقة بمفهوم أهل البيت وآل البيت في القرآن

تابع خيرية القرآن وعنصرية الشيطان:

يتضح لنا من قصة آدم وإبليس أنها قصة أول صراع سياسي في الأرض، وفيها العديد من الدروس السياسية أهمها:

١- أن مشكلة الشيطان هي مشكلة سياسية تتمثل في رفضه لخلافة آدم في الأرض بحجة وضاعة أصله وعنصره «خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» واشتراطه الأفضلية العنصرية لتولي الخلافة، وتكبر الشيطان باشتراطه الأفضلية العنصرية كشرط من شروط الولاية والخلافة كان سبباً في تكفيره وطرده من رحمة الله وحرمانه من الخلافة ﴿قَالَ فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ [الأعراف: ١٣]. ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ [البقرة: ٣٤].

ويترتب على هذا المعنى القرآني الواضح الصريح القطعي الدلالة أن من اشترط الأفضلية العنصرية للولاية العامة والخلافة، ولم يكتفِ بشرط العلم كما أوضح القرآن ذلك ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١]. فقد خرج عن الولاية الإلهية ودخل في

الولاية الشيطانية الطاغوتية ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٧﴾ [البقرة: ٢٥٧]. فيكون حكم من فعل ذلك كحكم الشيطان، ويجب أن يحرم من الولاية العامة والخلافة، بل ويطرد من الأرض التي يحل فيها حتى لا يتكبر فيها بنزعه العنصرية الشيطانية ﴿فَأَهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ

إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ [الأعراف: ١٣].

٢- ويتعزز هذا الفهم بمنهجية تفسير القرآن بالقرآن بأن الله حرم الولاية العامة والخلافة على المستكبرين المشرطين للأفضلية العنصرية كشرط من شروط الولاية،

- واختصَّ المستضعفين بالولاية العامة والخلافة بقوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]. فهذا دليل قرآني قطعي الدلالة بأن الله سبحانه وتعالى اتَّجهت إرادته لنصرة المستضعفين المحرومين من الحقوق السياسيَّة والاجتماعيَّة، لا المستكبرين بإعطائهم هذه الحقوق ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ فكما قال الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ لآدم الذي استضعفه الشيطان واحتقره لوضاعة أصله الطيني بزعمه تصرَّح هذه الآية الكريمة بجعل بقية المستضعفين أئمة ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ أي زعماء وقادة وخلفاء، وفي سياق المستضعفين والمستعبدين القرآني هذا يمكن فهم حديث رسول الله ص المطابق لمعنى القرآن في قوله ص: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»، فهذا الحديث يتطابق مع القرآن من زاوية نصرة المستضعفين على المستكبرين، وإقرار الولاية العامة فيهم، وحرمان المستكبرين منها، بل وطرد المستكبرين وإخراجهم من الأرض التي يحطون فيها حتى لا يفسدوها بكبرهم.
- ٣- أن الخلافة والولاية العامة أصل من أصول الشريعة بدليل أن الله سبحانه وتعالى كفر الشيطان ولعنه وطرده من رحمته؛ بسبب موضوع الخلافة والولاية لآدم، لا بسبب آخر عقدي أو تشريعي، ومن المعلوم عند العلماء أن الحكم بالكفر لا يكون إلا في الأصول لا المسائل الفرعية.
- ٤- أن الإسلام لا يقيم وزناً للأنسب والأحساب؛ فعلى الرغم من أن الملائكة خلقوا من نور، والجن خلقوا من نار، وبنى آدم خلقوا من طين إلا أن الله فضل آدم ÷ وجعل معيار التفاضل بين الناس معيار كسبي لا قسري يمكن أن يتسابق الناس في تحصيله وهو العلم والتقوى والكفاءة والإخلاص، أما المعايير القسرية (اللون - الدم - الوطن - القوم) فلا تصلح أن تكون معياراً للتفاضل؛ لأنها معايير قسرية ليس بيد الإنسان اختيارها.
- ٤- الحوار السياسيِّ الرَّائع بين الله والملائكة، وأن في هذا الحوار بين الخالق ومخلوقيه لدرس بليغ لكل الطغاة والمستكبرين الذين يأنفون من استشارة أو محاوره تابعيهم، فضلاً عن محاوره مخالفهم.
- ٥- أن تداول السلطة من أهم الأسباب للحروب والصراعات السياسيَّة عبر التاريخ وأن الوصول إلى تداول السلطة سلمياً تجنيب حياة الدول والمجتمعات من حروب مدمره وهدر كبير للطاقات والإمكانات في سبيل إرضاء قيادات سياسيَّة تتنافس على السلطة.
- ٦- إن قصة الشيطان مع آدم في القرآن الكريم بيَّنت لنا حقيقة هامة غابت عن أذهان كثير من العلماء، وهي أن مشكلة الشيطان العقديَّة الكبرى ليست في كفره بالله؛ فهو

مؤمن بالله بصريح القرآن في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [ص: ٧٩]. وقوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]. ولكن مشكلته في كبره وتمردّه واعتداده بأصله ومحتده، وفي رفضه التسليم بحقوق آدم السياسيّة «حقّ الخلافة في الأرض»، ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ بحجة وضاعة نسب آدم؛ لأنه خلق من تراب والشيطان خلق من نار.

فالكبر في المنظور القرآني هو الخطيئة الكبرى التي استوجبت تكفير الشيطان ولعنه وطرده من رحمة الله لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

ومن هذا المنطلق القرآني الواضح نقول إن من اعتدّ بنسبه وأصله لصلة قرابة نبويّ من الأنبياء أو رسول من الرسل معتبراً أنه من نسب مقدّس وأن الآخرين من نسب مدنّس؛ فزعم نفسه سيّداً والآخرين عبيداً فقد استكبر، ومن استكبر فقد كفر لصريح قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٩]. ومن اعتقد نفسه عبداً لسادة من البشر فقد أشرك بالله وكفر؛ لأنه لا يمكن أن تجتمع عبوديّة الإنسان لخالقه مع عبوديّته لبشر؛ لأنّ جوهر التوحيد هو إطلاق حريّة الإنسان إزاء الإنسان وإعلان مبدأ المساواة بين البشر ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

والقرآن بصريحه ذم سيادة بشر على بشر، واعتبر ذلك مظهراً من مظاهر الشرك والضلال ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٧]. فلا ربّ ولا سيّد إلا الله.

وذم القرآن الذين يفسّرون الدّين تفسيراً عنصرياً، ويزكّون أنفسهم زاعمين أنّهم أبناء الله وأحبّاءه، أو أبناء رسول الله وأحبّاءه. فقال تعالى في سياق ذم اليهود خاصّة- ومن سار على نهجهم في التفسير العنصري: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [آل عمران: ٤٨]. ألم تر إلى الذين يزكّون أنفسهم بل الله يزكّي من يشاء ولا

يُظْلَمُونَ فِتْيَالًا ﴿٤٩﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ [النساء: ٤٨-٥٠].

وكما لعن الله الشيطان وطرده من رحمته؛ لأنه زكى نفسه عنصراً وأصلاً فقال تعالى: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٧٦-٧٨].

نجد القرآن يلعن اليهود الذين زكوا أنفسهم افتخاراً بنسبهم الإبراهيمي في نفس السياق من سورة النساء بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [النساء: ٥٢].

٧- الخيرية في المنظور القرآني خيريتان: خيرية الرحمن، وخيرية الشيطان .. خيرية الرحمن هي خيرية الأخلاق والقيم، وخيرية الشيطان هي خيرية العنصر والدم: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٧٦-٧٨]. فالكبر والاستعلاء والتفاخر بالأصل والعنصر والنسب هي عنوان هذه المدرسة، وبالتالي فمن استكبر واستعلى على بني آدم، وفسر الدين تفسيراً استعلائياً استكبارياً عنصرياً فهم تابعون لمدرسة الشيطان وإن لبسوا لبوس الدين، وهم (آل الشيطان وذرية إبليس) لا آل الرسول. ويقول تعالى في بيان خيرية المؤمنين لا المتعصبين المنافقين ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فخيرية الإسلام هي خيرية القيم أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، لا خيرية الاعتداد بالأنساب والأحساب (دعوها فإنها منتنة) كما قال الرسول ص.

٨- على إثر رفض الشيطان لخلافة آدم انقسم العالم إلى ساحة للصراع السياسي بين حزب الله وحزب الشيطان، وبموجب حرية الإرادة التي منحت من الله للجن والإنس - بخلاف الملائكة - أمهل الله الشيطان إلى يوم القيامة لقيادة التمرد ضد الله وأديانه السماوية، التي ما تنزلت إلا لتحقيق مصالح البشرية دنيا وآخره ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: ١٦]. وتحريرهم من الأنظمة الطاغوتية الاستبدادية التي تراعي مصالحها الأنانية، وتلغي مصالح المجتمعات والشعوب ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فقد طلب الشيطان من الله إمهاله إلى يوم القيامة قال: ﴿فَأَخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۗ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۗ ۝٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ۗ ۝٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ۗ ۝٨٠﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۗ ۝٨١﴾ [ص: ٧٧-٨١].

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۗ ۝٣٦﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۗ ۝٣٧﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]. فأكد الشيطان أنه سيغوي بني آدم من نفس غوايته وهي النزعة العنصرية الاستكبارية.

بعد هذا الخلاف انقسم العالم -كما أسلفت- إلى ساحة للصراع السياسي بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وأولياء الرحمن هم أتباع النظام السياسي الإلهي، وهو النظام الذي تكون فيه الولاية العامة قائمة على أساس العقيدة لا على التفسير العنصري والعصبية الجاهلية؛ فالولاية العامة والخلافة في المنظور القرآني قائمة على أساس الإيمان، لا الأفضلية العنصرية؛ لصريح قوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۗ ۝٥٥﴾ [النور: ٥٥].

فالوعد في القرآن بالخلافة السياسية والتكليف للمؤمنين، وليس لعصبية جاهلية هاشمية أو قحطانية. (ليس من دعا إلى عصبية).
فهم الأدلة الفرعية (المتشابهة) المتعلقة بال أهل البيت في ضوء المحكم بعد أن أوضحت المعاني المحكمة لمفهوم آل البيت وأهل البيت في القرآن والسنة الصحيحة بمنهجية تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالسنة الموافقة لمتون النصوص القرآنية لا المتعارضة معها، عملاً بقوله تعالى: ﴿مِنَهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: ٧]. لأن المنهجية الصحيحة للفهم والاستدلال الذي أشارت إليه الآية السالفة هو البدء بالمحكم؛ أي الأصل (أم الكتاب)، ثم المتشابه (الفرع)؛ لأن الفرع -كما يقول علماء الأصول- لا يمكن معرفته قبل معرفة أصله، ومن هنا ينشأ التشابه. سأبدأ بمناقشة الأدلة الفرعية ومتشابهاتها على النحو التالي:-
(١) حديث الكسا:-

حديث الكسا من أهم وأخطر الأحاديث التي يستشهد بها من يفسرون الإسلام تفسيراً عنصرياً سلالياً استكبارياً «الشيعة بمختلف مذاهبهم»، وهذا الحديث أربك أيضاً الكثير

من علماء السنة، وهو حديث رسول الله ص المروي عن عائشة قالت: (خرج رسول الله ص وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي، فأدخله، ثم جاء الحسين، فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]. (إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا).

وفي رواية للترمذي روى بسنده إلى عمرو بن أبي سلمة ربيب النبي قال: «لما نزلت هذه الآية على النبي ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ في بيت أم سلمة، فدعا فاطمة وحسناً وحسيناً، فجلبهم بكسا وعلي خلف ظهره، فجلبه بكسا، ثم قال: اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً. قالت أم سلمة: وأنا معهم يا نبي الله؟ قال: أنت على مكانك، وأنت على خير». وسأناقش مدلول هذا الحديث على ضوء القواعد المنهجية التي أشرت إليها سلفاً من عدة زوايا:

أ- أقول هذا الحديث (حديث الكسا) ورد في سياق تفسير قوله تعالى في القرآن: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ وبعض علماء أهل السنة من ذوي المنهجية الجزئية قبل هذا الحديث على قاعدة تفسير القرآن بالسنة، وهذه القاعدة صحيحة، لكن ما ينبغي التنبيه له أن المفسر قد يفسر القرآن بالسنة إذا كان نص الحديث موافقاً للنص القرآني لا معارضاً له، لا سيما إذا كانت دلالة متن النص القرآني قطعية لا ظنية، أما إذا تعارض الحديث مع متن النص القرآني فعندئذ نعمل بالقاعدة الأصولية المشار إليها (قاعدة التعارض والترجيح)؛ أي عندما يتعارض حديث الرسول ص الظني السند مع النص القرآني القطعي السند والدلالة، فنحاول التوفيق بين النصين المتعارضين ولو استدعى الأمر أن نغلب المفهوم المرجوح للحديث على المفهوم الراجح، فإذا لم نستطع التوفيق يردّ الحديث؛ لأنه ليس كل حديث صحيح السند صحيح المتن، كما قرّر ذلك علماء الأصول كالشاطبي والإمام مالك الذي كان يقدم عمل أهل المدينة على الحديث الأحادي الظني الصحيح، وكالإمام البخاري الذي أورد حديث ردّ عائشة للحديث الصحيح السند المرتبك المتن «إن الميت ليعذب ببكاء أهله».

والمفسر المتدبر للآية المتعلقة بأهل البيت وتطهيرهم سيجدها خاصة بنساء النبي نصاً ومضموناً، بحيث لا يمكن أن يدرج في مفهوم الآية أي رجل لاعتبارات تتعلق بسياق الآية ومضمونها، ولنتدبر معنى هذه الآيات في قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي

قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ
وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ
أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ
اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ [الأحزاب: ٣٢-٣٤].

إن المتدبر لمتن هاتين الآيتين سيدرك بوضوح أن الآية وردت في سياق نساء النبي، خاصة بصريح القرآن والنداء موجه لنساء النبي ﴿يٰنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ ومضمون الآيتين كله في سياق نساء النبي: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾

وبهذا يتضح أن متن الآيتين القرآنيتين متعلق بنساء النبي ص بدلالة قطعية يفهمها طالب في الصف الثالث إعدادي فضلاً عن عالم مجتهد، وهذا الرأي هو المشهور عن ابن عباس، كما جاء في تفسير ابن كثير. وليس ذلك فحسب بل أستطيع القول بأن هذا السياق القرآني لا يمكن أن يدخل فيه أحد غير نساء النبي ص بصورة خاصة، والسبب أنه كما يقول علماء الأصول بأن الحكم يدور مع العلة وجوداً وعدمًا.

فسياق الآيتين أوجب على نساء النبي تكاليف وأحكاماً إضافية ﴿لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ هذه الأحكام والتكاليف هي:

- ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾

- ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾

- ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾

ثم أوردت الآية علة هذه الأحكام والتكاليف بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فعلى هذا الأساس (الحكم يدور مع العلة) لا يمكن إدخال أحد من الرجال في سياق قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ إلا إذا تم إسناد تلك الأحكام والتكاليف إليهم، وهي عدم الخضوع

بالقول والقرار في البيت وعدم التبرّج، وهذا أمر مستحيل؛ لأنّ هذه التكاليف التي دارت عليها العلة منوطة بالنساء لا بالرجال.

ويتعرّز هذا الفهم بأنّ المقصود بأهل البيت في هذه الآية نساء النبيّ بقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ فلنتدبّر معاً هذا التعبير القرآنيّ (بيوتكن) فقد دلّ هذا التعبير دلالة قاطعة بأنّ أهل البيت هنّ نساء النبيّ بنسبة بيوت النبيّ إليهن بدخول نون النسوة على البيوت.

وبهذا نخلص بأنّ متن هاتين الآيتين قطعيّ الدلالة بأنّ المقصود بأهل البيت هنا نساء النبيّ خاصّة.

وفي هذا السياق يمكننا القول بأنّ حديث الكسا قد عارض وخالف صريح الآيات القرآنيّة في سورة الأحزاب، عندما أخرج الحديث نساء النبيّ من سياق هذه الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ مع أنّ ما قبل هذا السياق وبعده يتحدّث عن نساء النبيّ على النحو الذي أوضحته.

ومن هذه الزاوية يمكننا القول بأنّ هذا الحديث وإن صحّ سنده، إلّا أنّ متنه يعارض القرآن، وقد أوضحت سلفاً بأنّ صحّة السند لا تستوجب صحّة المتن، وأنّ متن الحديث إذا خالف القرآن حكم عليه بالبطلان، وإن كان صحيح السند كما قرّر ذلك علماء الحديث، من ذلك ما أكّده الشيخ الألباني المحدث المعاصر الشهير في كتابه الآيات البيّنات في عدم سماع الأموات، بأنّ صحّة السند لا تستوجب صحّة المتن، وأنّ هذه قاعدة مشهورة عند علماء الحديث بقوله: «المقرّر في علم مصطلح الحديث أنّ صحّة الحديث لا يستلزم صحّة المتن لعلّة فيه خفيّة، أو شذوذ من أحد رواته».

وذكر ابن القيم في كتابه (المنار المنيف في الصّحيح من الضّعيف) أموراً كليّة يُعرف بها كون الحديث موضوعاً، منها مخالفة الحديث لصريح القرآن.

وما قاله محدّث الديار اليمينيّة الشيخ مقبل بن هادي الوادعيّ: «كتاب ابن الجوزي من أحسن الكتب، أنصح إخواني في الله بقراءته، وهو مأخوذ من "الأباطيل" للجوزقاني، وابن الجوزي أعلم من صاحب الأباطيل، وصاحب الأباطيل متكلم فيه (١)، لكن ابن الجوزي عالم ومحدّث فله نظران إلى الحديث. أحدهما: أنّه ينظر إلى السند، ثمّ ينظر إلى المتن، فإذا رأى المتن مباحثاً لشرع الله أو رأى فيه شيئاً من النكارة حكم عليه، ولو كان الحديث ما في سنده كذاب» الفتاوى الحديثيّة [٤٠٢١١ ط دار الآثار].

فيكون حال هذا الحديث كحال الحديث الذي ردّته عائشة ل «إنّ الميتّ ليُعذب ببكاء أهله» لمخالفته لصريح القرآن، وبهذا يتّضح صحّة ما حكم به ابن تيميّة على الأحاديث التي ينسبّتها بها الشيعة الرافضة بقوله: «وأما سائر الأحاديث التي يتعلّق بها الروافض

فموضوعة، يعرف ذلك من له أدنى علم بالأخبار ونقلتها» (١). (١) منهاج السنة [٣٢٠/٧-٣٢١].

ب- بعد أن أوضحت تعارض هذا الحديث مع نصّ القرآن المتعلق بالآية: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ نقول بأنّ هذا الحديث يتعارض مع السياق المحكم لمفهوم أهل وآل البيت في القرآن، والذي طرفناه من عدة زوايا على النحو السالف.

ج- كما أنّ حديث الكسا يتعارض مع نصّ قرآنيّ متعلق باللباس والكسا في قوله تعالى: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٦].

فصريح هذه الآية دلّ على وجود لباس وكسا (طينيّ جسديّ) (لباسًا يُؤَارِي سَوْءَتِكُمْ وَرِيشًا) ولباس وكسا دينيّ (وَلِبَاسُ التَّقْوَى). وبهذا يتضح أنّ من يفسرون القرآن باللباس والكسا العنصريّ (لباس الجسد والطين) يعارضون صريح القرآن الذي يؤكّد أن كسا ولباس الدين والتقوى هو خير، وهذا تعزيز لمفهوم أهل البيت وآل البيت بمفهوم الدين لا الطين بمنطلقاته الإنسانيّة لا العنصريّة الشيطانيّة.

فهم الأدلّة الفرعيّة (المتشابهة) المتعلقة بآل وأهل البيت في ضوء المحكم (٢) حديث العترة:

قال رسول الله ص: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخَرِ كِتَابُ اللَّهِ وَعَنْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي» حديث صحيح (السلسلة الصحيحة للألباني).

هذا الحديث أيضًا من الأحاديث التي استغلها الشيعة في مرويات أهل السنة، وفسروا الإسلام تفسيرًا عنصريًا بموجبه، ولبيان معنى هذا الحديث أقول: إنّ العالم المُلمّ بالشريعة الغراء مقاصد وكلّيات وجزئيات، ومحكمات ومتشابهات، وعمامًا وخاصًا، ومجملاً ومقببًا عندما يقف أمام هذا الحديث يجب أن يكون في ذهنه كافة القواعد المنهجية التي أشرنا إليها في بداية البحث، وهو عندما يسبر غور هذا الحديث وفق تلك القواعد، ويقف أمام حديث للرّسول ص كمثل هذا الحديث، يفترض فيه ألا يتوقف عند دلالة الحديث، ويستنبط منه معنى يعارض المعاني المحكمة التي سبق إيرادها، بل يعتبر دلالة هذا الحديث الفرعيّ متشابهة، ثم يقوم بعرض هذا الحديث على المحكم من المعاني عملاً بقوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾

[آل عمران: ٧].

وقد أشار علماء التفسير أنه عندما تبرز دلالة متشابهة فيتوجب الرد إلى المحكم؛ أي الأصل؛ لأن منشأ الإشكال عند البعض هو النظرة الجزئية للنصوص، وكأن كل نص موضوع مستقل، في حين أن المنهجية الصحيحة هو التفسير الموضوعي لكافة النصوص المتعلقة بالموضوع مع التمييز بين الأصل والفرع في الموضوع الواحد والمحكم والمتشابه، وصدق الله العظيم القائل: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً

طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ [إبراهيم: ٢٤]. فأصل الموضوع كجذر الشجرة التي يعطيها الثبات والتماسك، وفرعها لا يثبت إلا إذا كان الأصل ثابتاً، وما أشرنا إليه من محكمات وأصول في هذا الموضوع (نسب الطين ونسب الدين - قصة نوح ومفهوم الأهل في القرآن - مفهوم الآل في القرآن بأنهم الأتباع - وحدة الأصل البشري (قصة آدم) ... الخ) هي الأصول المحكمة الحاكمة؛ لأن القرآن مقدم في الاعتبار، ويجب أن يفهم هذا الحديث في ضوءها ما لم يُرد، والعالم عندما يسير وفق هذه المنهجية المحكمة سيسير غور هذا الحديث كالتالي:

معنى قوله ص: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الْآخِرِ كِتَابُ اللَّهِ وَعِزَّتِي أَهْلُ بَيْتِي»:

١- على ضوء القواعد المنهجية السالفة اتضح أن القرآن قد فرق بين نسب الطين ونسب الدين، وجعل نسب الدين فوق نسب الطين، وبالتالي استخدم كل المفردات اللغوية الدالة على نسب الطين في سياق نسب الدين مثل كلمة (أخ) ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]. وكلمة (أب) ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، (الأمهات): ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]. ... الخ، وبالتالي فالحديث استخدم كلمة عترة ثم فسّر العترة بأنهم أهل البيت (وعترتي أهل بيتي)، وعليه فإن معنى العترة وأهل البيت في هذا الحديث هم المؤمنون وليس بني هاشم، وعلى ضوء هذا الفهم تنتفي الإشكالية من الحديث، ولا يفهم فهماً عنصرياً سلالياً طاغوتياً استكبارياً يقسم الناس إلى سادة وعبيد؛ لأن هذا الفهم يضرب مقاصد الإسلام وكتباته.

٢- وعلى ضوء هذا الفهم سيكون معنى الحديث هو الإشارة إلى الإجماع أو الشورى لقول الرسول ص (لا تجمع أمّتي على ضلالة).

٣- وإذا أدركنا أن هناك روايتين: رواية تقول: «كتاب الله وسنتي» ورواية تقول: «كتاب الله وعترتي»، فستكون دلالة الحديثين هي الإشارة إلى مصادر التشريع

المعروفة في كتب الأصول (القرآن - السنة - الإجماع أو الشورى)، وبهذا الفهم لا نجد أي إشكالية في فهم الحديث.

٤- ويتعزّز هذا الفهم لمعنى الثقلين في الحديث والعترة أهل البيت بأنهما (وحي السماء كتاباً وسنة) (والإجماع والشورى) بما ورد في القرآن من تأكيد بأن مدار أمر المسلمين يقوم على أصلين هما:

أ- الشريعة الإسلامية (قرآن وسنة)
ب- الشورى

أما الدليل بأن الشريعة هي الأصل الأول، والثقل الأول الذي يقوم عليه أمر المسلمين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨]. فصريح هذه الآية قد اعتبر الشريعة هي مدار الأمر الواجبة الاتباع.

وأما الدليل القرآني الذي اعتبر الشورى الأصل الثاني والثقل الثاني الذي يدور عليه أمر المسلمين، هو قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨]. فالنص القرآني هنا صريح الدلالة أن أمر المسلمين من بعد الشريعة يعود إلى الشورى. إذا فالثقلان كتاب الله والعترة هما (الشريعة - والشورى).

٥- لو افترضنا أن المقصود بالحديث هنا (أهل البيت والعترة) بني هاشم لتصادم هذا الفهم مع كافة المعاني المحكمة التي أشرت إليها سلفاً، وحكم هذا التعارض إذا لم نجد لهذا الحديث تأويلاً ينسجم مع المعاني المحكمة الواردة في هذا السياق هو رد الحديث على قاعدة عرض الحديث على القرآن لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. فهذه الآية قرّرت توافق وحي السماء كتاباً وسنة، وجعلت من اختلاف النصوص والتعارض دلالة على أنها من عند غير الله، وعلى ضوء هذا الدليل أقول لأهل السنة الذين ضعفوا حديث ردّ السنة إلى القرآن بأن هذه آية لردّ السنة إلى القرآن، وليس حديثاً، ولأنّ القرآن قطعيّ سنداً، والسنة ظنيّة، فيجب عرضها على القرآن، فإذا اختلفت مع القرآن، وتعارضت أدركنا أنّ هذا الحديث من عند غير الله ورسوله؛ أي حديث موضوع، وإن كان سنده صحيحاً.

٦- كما أننا لو افترضنا أنّ المقصود بالعترة بنو هاشم فالإجماع مصادمة هذا الفهم للمعاني المحكمة القرآنية الواردة بهذا الصدد على النحو الذي أسلفت، فإننا من زاوية أخرى إذا افترضنا أنّ المقصود بنو هاشم من العترة والآل فسنجد أنفسنا في إشكالية في تطبيق هذا الفهم في الواقع؛ لأنّ بني هاشم منهم المؤمن والكافر، ومنهم السنّي والشيعي، وهم مورّعون بين السنة شوافع وحنابلة وأحنافاً ومالكيّة، ومورّعون بين الشيعة زيدية وإثنا عشرية وإسماعيلية وبهائيّة... الخ، وهنا سيبرز السؤال: من

المقصود ببني هاشم؟ السنة أم الشيعة؟ وإذا كانوا في السنة فأبي مذهب؟ وإن كانوا في الشيعة فأبي مذهب؟ وبهذا نخلص أنه يستحيل تطبيق الفهم العنصري لهذا الحديث في الواقع.

(٣) قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]:

نقول ابتداءً يجب أن لا نفهم هذه الآية المتشابهة إلا في ضوء المعاني المحكمة القرآنية السالفة الذكر، عملاً بقاعدة ردّ المتشابهة إلى المحكم. وعلى هذا الأساس فالقراية هنا تُحمل على قراية الدين وليس على قراية الطين، ويتعزّز هذا الفهم بمنهجية تفسير القرآن بالقرآن، بقوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. فصریح هذه الآية نفى المودة عن الأقارب طيناً أباً وابناً وأخوة وعشيرة، وأثبتها ديناً ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾. فهذه دلالة قطعية قرآنية على أن المودة لا تكون لقراية الطين، وإنما لقراية الدين.

الخلاصة:

من هم آل البيت في المنظور القرآني

١- أهل البيت وآل البيت في المنظور القرآني هم المنتسبون إلى الرسول محمد ص ديناً (المؤمنون)، وليس المنتسبون للرسول ص طيناً (بني هاشم)؛ لأن بيت النبوة هو بيت الدين وليس بيت الطين.

٢- وقوام هذا البيت هم المؤمنون لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:

[١٠].

٣- وهؤلاء المؤمنون أمهاتهم نساء النبي لقوله تعالى: ﴿وَأَرْوَاجُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ﴾

[الأحزاب: ٦]. والنبي ص، أبو المؤمنين أبوة دين لا أبوة طين.

٤- كما أن البيت قد تم تجسيده (بالكعبة) والطائفون حوله من المؤمنين هم آل هذا البيت وأهله وأولياؤه، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَمَا لَهُمْ آلًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ

عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ [الأنفال: ٣٤]. والقائل: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ [البقرة: ١٢٥].

٥- وأخطر فتنة قام بها التأويل المجوسي للإسلام، وقاتل عليها قتال لسان لا قتال سنان- هي فتنة إخراج المؤمنين أهل بيت الله الحرام عن معنى أهل البيت بحصره في أهله نسباً وطبياً، لا أهله إيماناً ودينياً، بدليل هذه الآية، والتي إن كان لها سبب نزول إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول علماء الأصول، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقْتِلُونَكُم حَتَّىٰ يَرُدُّوكُم عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُم عَن دِينِهِ فَمَا لِي بِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٧﴾ [البقرة: ٢١٧].